إِهْدَاء

إِلَى جَدَّتِي.. سَيِّدَةِ الْحِكَايَاتِ الْغَائِبَة

إِلَى أَبِي.. قَارِئِي الْأَوَّل

إِلَى أُمِّي.. مِفْتَاحِ الْبَيْت

إِلَى زَوْجَتِي.. لِوَلَاكِ مَا بَنَيْتُ حَجَرًا

إِلى السَّاعِدِ وَالْعَضُدِ.. «هانِي» و«أَحْمَد»

إِلى «سَابِيَة» العَقْل، و«سِلِيم» الْفُؤَاد

«إِلَى هَؤُلَاءِ الْمُغَرِّدين خَارِجَ الْسِّرب، الْهَارِبِين مِنَ القَفَص، الْمُحَلِّقين فَوْقَ سَقف المَدِينَة».

obeikan.com

مُقدِّمَة

لم أكُن أتصوَّر حِين دُعِيتُ للانضمام لهذا التَّحْقِيق أنَّ النتائج ستكون بهذه الصورة. أمضيتُ لَيْلَتي الأولَى أبحَث بنَهَم عن كلِّ اسم يرد في خاطري، وللحق فإنَّهم لَمْ يخيبوا ظنِّي أبدًا. كَانَوا هناك حَيْثُ توقعتهم، سابقين وحَالِيِّين، مُؤَسِّسُو دُول، ورؤساء، ووزراء، وأُمَراء، وأَمِيرات، ورِجَال أعْمَال، وأباطِّرة المال من المحيط إلى الخليج. جَنَّات النَّعِيم الضَّرِيبي تَجْمَع مَا فرَّقه الدَّهر وأفسَدته السِّياسة. هُناك تجد نَجل «السَّادات»، ونَجل «مُبَارك»، ونجل «هَيْكَل» جنبًا إلَى جنب مع مُلوك وأمراء «آل سُعود»، و«آل ثاني»، حاشِية «القذَّافي» وأبناء خال «بَشَّار».

أمَّا مصر فكَانَت قَوَائِم مَنْ يَلْجَأون إِلَى جَنَّات النَّعِيم الضَّرِيبي مِنْ مُواطنيها ثَرِيَّة بحجم الفقر الضَّارب فيها: رُؤَساء أَنْدِيَة رِيَاضيَّة، رِجَال أَعمَال، أَصْحَاب قَنَوات تِلفزيونيَّة ودينيَّة، عائِلات مَشَاهير الأطبَّاء، دبلوماسيون، مُصنِّعِو ووكلاء أغلى السيَّارات. وكلَّما أظهَرَت الوَثَائِق اسمًا ووثَّقْتُ أنَّه أساء استخدام نفوذه أو تربَّح مِنْ مَنْصِبه أو تهرَّب من دَفْع الضَّرَائِب أو ارتكب مخالفة يُجَرِّمُها الْقَانُون، يكون رَدّ الجِهَات المَعْنيَّة بالمُحَاسَبة مُتَطَابقًا مع المَثَل القَائِل: «أَقُولُ لَهُ عمرًا، فَيَسْمَعه سَعْدًا، ويَكْتُبُه حمدًا، ويَنْطِقه زيدًا».

وُرُود أسماء بعض الأشخاص فى تلك القوائم، لا يعنى أنَّهُم ارتكبوا بالضرورة فعلًا غَيْر قانوني، ولكن لأنَّهُم كانُوا عُمَلاءَ لشَرِكَة «مُوسَاك فُونسِيكَا» التى تورطت فى مساعدة آخرين، أفرادًا وشَرِكَات، فى ارتكاب جرائم مَاليَّة وأخلاقية، فكان لابد من إيضاح ذلك، وإلقاء الضوء على أنشطتهم. ويدافع من الشَفَافِيَّة ومصارحة الجمهور بما وجدناه، وحرصًا على إنصاف أنشده وحياد أحرص عليه ما استطعت، اخترت أنْ أعرض أبرز تلك الاسماء، وما دامت السُلُطَات لَمْ تفتح تحقيقًا، فلا اتهام ولا إدانة.

اخترتُ في البداية أنْ تكون قِصَتي الأُوْلَى عن علاء مبارك، واستطعت أنْ أُحوِّلها إلى تحقيق تلفزيوني عُرض على شاشة قناة «النهار»، وبالكاد نَشرت تَحقيقًا ثانيًا عن الفساد في الفيفا، ثم جاءت الموجة الثَّانية لوَثَائِق بَنَمَا التي قررنا أنْ تُركِّز على التنقيب عن المعادن والأَحْجَار الثَمِينة والبترول داخل إفريقيا. كَانَت قِصتي حينها حول إحدى شَرِكَات رجل الأَعْمَال صلاح دياب، لوهلة تردَّدتُ في التعاطي مع القِصَّة، فالرجل لَمْ يَكُن مُستَثمرًا فحسب، بل مَالِك الصحيفة التي طَالَمَا عَمِلتُ بها، غَيْرَ أنَّ قراري في الأخير كَانَ النشر دون انحياز، واخترت أنْ أنشُر هذا التَّحْقِيق في وسيلة إعلامية اختبرت حيادَها ومِصدَاقيَّتها: «أصوَات مِصريَّة».

في الساعات التالية للنشر كنتُ معنيًا بالردّ، وإيضاح كلّ ما يخص التساؤلات المُثَارة في المنطقة العَرَبِيَّة، خَاصَّة وأنَّ الشركاء في تُونس الَّذِين انضموا في مرحلة لاحقة للتحقيق تعرضوا لهجمة شرسة سَوَاء على مَوقِعهم الإلكتروني أو مِن المُشكِّكين فيما ينشرون، فيما آثَر آخَرُون السلامة وتجنَّبوا كلَّ مَا يَخُص دُوَل الخَليج؛ خَوفًا من عُقُوبَات تَطَالهم مِنْ السُلُطات في بِلادهم، وبين هذا وذاك كَانَ ثمَّة اختبار صعب لاَح في الأُفُق، صحيفة إسرائيلية نَشَرت تَقريرًا تَزْعُم فِيه أنَّ بَيْن «وَثَائِق بَنَمَا»

ما يُثْبِت أنَّ سَلْمَان بن عَبدالعَزيز -مَلك السُعُودية- قام بتَمويل الحَمْلَة الإنْتِخَابِيَّة لرئِيس الوزراء الإسرائِيلي بنيامِين نَتَنْيَاهو. بَدَا التَقَرير للوَهْلَة الأُولَى صَحِيحًا، حَتَّى إنَّ وَسَائِل إِعْلَام أجنَبِيَّة كُبرى تَدَاوَلته بشَكلٍ فوري وجَرَىَ إِبْرَازُه لعدَّة سَاعَات.

فِي الخَلفيَّة كَانَ المَشْهَد مُخْتَلِفًا، لو أنَّ ثَمَّة وَثِيقَة مثل هذه موجودة داخل قَوَاعِد البَيَانَات التي بحوزتنا، فمن المفترض أنني سأكون مطلعًا عليه مسبقًا، غَيْر أنَّ القصص المنشورة جرت مراجعتها مسبقًا قبل النشر، بيد أنَّ اتخاذ خطوة التشكيك والنفي كَانَت تحتاج إلى أنْ أقوم بمراجعة عِدَّة مئات من الوَثَائِق التي (من المحتمل) تَخُصُّ الملك سَلْمَان والشَّرِكَات المذكورة. استغرق قيامي بتلك الخطوة أكثر من ٢٠ ساعة عمل مُتَّصِلة، ليكون بإمكَانِي أنْ أؤكد أنَّ الخبر غَيْر صحيح، فرَغم أنَّنَا كشفنا ونشرنا امتلاك ملك السعودية لشَرِكَات «أوف شور» -سأروي تفاصيلها لاحقًا- إلا أنَّ هذا لا يعني التَجَنِّي على الأفراد، أو أنْ نَنْسِب للناس مَا لَمْ يَقُومُوا به، ولَو بالصَمْت على تلك الادِّعَاءَات.

كنَّا على يقين من أنَّ الطعن في مصداقية تقرير واحد من تلك التي ننشرها، وثبوت صحة هذا الطعن، كفيل بنسف مصداقيتنا جميعًا، ليس نحن فَقَط كصحفيين مُشاركين، وإنَّما مُؤسساتنا الإِعْلاَميَّة أيضًا، لذلك وضعنا المعايير الصارمة التي التزمنا بها حَتَّى مساء الثَّالث من أَبْرِيل/ نَيْسَان ٢٠١٦.

وبقدر المصاعب كَانَ التقدير، في مرحلة معيَّنة وضَعت هَدَفًا أمامي وهو التخصص في الصحافة الاستقصائِيَّة، لذلك عندما أُتيحت لي فرصة الحُصُول على الزمالة من إحدى الصحف الأَمْرِيكيَّة اخترت أنْ تكون

واحدة من الصحف التى حصل مُحقِقُوها على جائزة «بوليتزر»، كَانَ ذلك عام ٢٠٠٨، وكَانَ الاختيار هو صحيفة «سِيَاتل تَايمز» في ولاية واشنطن.

بعد عامين وبينما كنت أستَعِد للحصول على دبلومة من إحدى الجامعات بالسويد، التقيت واحدًا من أهم صحافيي التَّحْقِيقات في أُورُوبَّا، والمرشح حينها لجائزة «بُوليتز»: المخضرم «نيلز فونكز». كَانَ لقاء موجزه أنَّ الأشياء العصيَّة الآن، ستصبح يومًا واقعًا يفقد بريقه عند الوصول إليه، لتبحث بعدها عن شيء عصيٍّ تُطوِّعه.

بعد ٦ سنَوَات التقينا ثانية، الصدفة وحدها دبَّرت اللقاء في استوكهولم، تلك المرة كَانَ فونكز (العجوز) يحاضر في جماعة من الصَّحفِيّين القادمين من دُوَل اسكندنافيا حول تحقيقاته، فيما كنت محاضرًا في القاعة المجاورة.

منذ عشر سنَوَات كَانَ مُجَرَّد التفكير في الحُصُول على جائزة «بوليتزر» يشبه المستحيل؛ إذ تُمنح الجائزة العريقة فَقَط للصحافيين الأمريكيين أو لمن ينشر أعْمَاله في صحيفة أمريكية، غَيْر أنَّها جاءت دون إلحاح، وتحققت دون استجداء، بعدما منحت جامعة كولومبيا الجائزة للفريق الكبير.. فريقنا الَّذِي قوامه ٣٧٠ صحافيًا من قارات العالم..

بوليتزر (العصيّة) باتت طوع اليد، فلنبحثْ إذن عن حُلم أبعد..

في الأخير، لا يسعني إلاَّ أنْ أشكر كلَّ مَنْ مَدَّ يَدَه وساهم في خروج هذا العمل إلى النور، خَاصَّة الزملاء (لمياء عبد الرازق، ومنى أبو النصر، وإسراء محمد، والزهراء جمعة، وجهاد حسين، وهيثم صالح، ومحمود علي) الَّذِين عَمِلوا على ترجمة التقارير والوَثَائِق من عِدَّة لغات، وفحصها والتدقيق في محتواها لعدَّة أسابيع، وقد اخترت أنْ أضع في هذا الكتاب

أبرز القصص من بَيْن عشرات التَّحْقِيقات التي نشرناها في الموجة الأولى من «وَثَائِق بَنَمَا»، والتي حققت صديً عالميًا كبيرًا، وحظِيَت باهتمام وَسَائِل الإِعْلاَم والمُؤَسَّسَات الدُوَلية التي تُعنى بمكافحة الفساد والتَهَرُّب الضَّرِيبي.

هشام علام

القاهرة، أبْرِيل/ نَيْسَان ٢٠١٧

obeikan.com